الحب والأبد

قصة حب أليم :

من

[الرقص في المدافن] (*)

هذه القصيدة للشاعر المبدع محمود البريكان تصور ، تصويراً نفسياً عميقاً ، أطوار إنسان أحب بقوة ، ثم أتى الزمن على حبه فاستحال نفوراً وتسامياً فبينما يتنبه فيها [هي] — بعد أن أصبحت أماً ثم أرملة — حنين جارف الى حبها الأول الذي اضاعته وفرطت فيه ، اذا [هو] يحس ان بينه وبينها { سداً } أبدياً — وان كان يحب « طفلة الأمس التي فيها » . والحرارة التي تشيع في القصيدة توحي بأن الشاعر يعبر عن عواطف حقيقية ! على انه ينفي ان تكون القصة — كما وردت — وقد وقعت لشخص معين ، وان كان لكتابتها مناسبة خاصة .

البيان

[١]

أفلتت نظرة ، تسائلها عنا سؤالا يذوب دون الشفاه :
الغريبان نحن .. ما منتهانا بعد عهد الهوى الجميل الزاهي؟!
وتلظت مخاوفي قبلة حرى .. فأنت .. وغمغمت « يا إلهي !
أيكون الهوى الشقي بقلبي حلماً ينتهي غداً بانتباه ؟ »

. . . . . .

هكذا كان ، ليلة من ليالي الصيف ، دب الأسى بها والفتور
لم يكن في ظلامها غير ظلينا على صامت الثرى من يسير . .
كان شيء ، كالخوف ، يشبك كفينا وهم بخاطرينا يثور
ووجوم ، يطغى علينا ، غريب ! فكأن الدجى هناك قبور

وكأن الهواء ، يخنقه نعي ، ومستوفز الرياح نذير !
قلت . « ليلى ! أحس في صدري الدامي بنار غريبة تستطير !
موجة من كآبة ، لست أدري لم تطغى في مهجتي وتفور !
غصة . . كالوداع يا ليل ! »

وانجاب عن الحارة القتام الغمير
وانتفضنا في آخر الدرب يلظى من جحيم المجهول فينا شعور
ووقفنا . ! أجاهد الصمت . كي ألقي سلاماً يمليه قلب كسير
وعلى ثغرى ابتسام كذوب دامع بارد . . الرسوم .. مرير !
وتلاشت على يدي رعشة الأحزان . . واهتز صوتها المسحور :
« ملتقانا غداً . . ! »

ولكن غداً مر ،

وولى غد ،

وظلت تدور —
في أسى الأنتظار — سود ليال مثقلات كأنهن الدهور !
لم يعد غير ذكرياتي سلوى بعد أن غرب الشعاع الأخير
همت وحدي في وحشة الأرض حيران كأن الحياة قفر كبير
وكأن الجمال والنور والآمال بنت الرؤى سراب يغور
كم أظلت مأساة قلبي شجيرات ، ورقت لما أبوح طيور
وبكت زهرة ورفرف عشب لاغترابي وامتص دمعي غدير
لم يعد يستثيرني من دجى ماضي إلا وجة . بريء . غرير
وجهها ! ساعة افترقنا كأنا نتملى ما يضمر المقدور !
هكذا ! جفت الثمالة من كأسي . وألوى فؤادي المخمور
نحو دنيا ، من نسج أحلامه ، تفنى ،
وذكرى يغيب منهـــا النور . .

[٢]

ثم جاء الخريف بالغيم ، والجدب ، وأرياحه ، وصفر رؤاه
واذا بي أمر يوماً بباب طالما همت ذاهلا لأراه . .
فأرى نسوة ينحن ، وأشباحاً ، كأن الردى يمد رجاه
وتدمي مسامعي ضجة الندب .. وهمس ملء الطريق صداه
واذا بي — ياوثبة القلب! — ألقى مشهداً ما حييت لن أنساه !
أي وجه ؟ ليلى ؟ أحقاً ؟ !

(*) ديوان شعر من مائة قصيدة ، معد للطبع .

تغيرت ! لماذا تبكين يا ليلاه !
لم هذا السواد يكسوك بالحزن ؟ !
فترنو . . كأنها لا تراه . .
بابتسام محير ملء عينيها ، وتهفو ، وتقشعر الشفاه . .
« انه مات »
« من ترى مات ؟ »
« زوجي ! »
– ثم تخفي من دمعها مجراه . . –
«هكذا نلتقي ! أخيراً ! »
وتحنو ، بمحيا ، كالموت ، ما أقساه !
كضمير الزناة ، يصبغه عار ، وهول معربد يغشاه . . .
وتناءى يدي . . ويرقد عبد في ضميري ، ويستفيق إله ! . .
«إحفظي بعد كل ما كان ليلى ! حرمة الموت ! واحفظي ذكراه !
إن يكن في يديك من ذلك الماضي . بقايا . فأحرقي بقياه
إن بيني وبينك الآن سداً فلنقدس آلامنا في ذراه
ولنكن بعدها صديقين . في الروح ! »
ويقسو قلبي ،
ويقسو لظاه
ويجن الصراع في . . .
ويبدو ، عارياً ، ضعفي الذي أهواه
فأرد الدموع في غور قلبي . . . وأنادي بحسرة
« أختاه !
امنحي طفلك العناية والحب ، ، وماذنبه ؟ ! »
فتبكي . . . . .
« تراه
لعنة الدهر لي ، على زلة كانت ، وغدر غفلت عن عقباه ؟
إنه كلما دعاني باسمي . . أورنا باسماً . . ذكرت أباه . . ! »

[٣]

ذات يوم معتم ، غامت الآفاق فيه ، واصفر وجه المياه
وتنادت ، في جوه الجهم ، غربان ينفرن كل طير لاه . .
عندما أقبل الظلام . . ولم يبق من الشمس غير خيط واه
نفلت وطأة المساء على روحي وأحسست وحدتي في متاهي
وتحسست في صميمي نفوراً وجموداً كالموت لامتناهي !
ودعا هاجس ، فلبته أقدامي . . .
وأوغلت . . بالعيون السواهي . .
في طريق القبور تملأ صدري حشرجات تموت دون الشفاه !
. . . . . .
كنت وحدي أسير في حارة الموتى أغني همس أغاني الحزينا
أتملى ، في وجمة ، نصباً غبراء عاثت بها علينا السنينا
وأدوس الصخور في قسوة تبكي كأني أعذب الراقدينا !
وارتعشت ارتعاشة . .
أي اضداء ؟ . . . كأن الهواء . . يخفي أنينا ؟ !
أيئن الأموات ؟
واستضحكت نفسي ! وطاردت وهمي المجنونا
وتلفت . : .
كان طيفاً بهيماً . . . دافناً بين مرفقيه الجبينا . .
في خشوع . يخط شيئاً على الأرض . كعرافة تفض السنينا
وتسللت واقتربت . وزاغت نظرة سمرت يدي والجفونا
صحت « وا دهشتاه !
أنت هنا ؟ ليلى . . ؟ وماذا ترى هنا تفعلينا ؟ ! »
كان سطر على التراب . . فوارته . . .
ولاذت بصمتها المر حينا . : . .
« أنت أوصيتني لأحفظ ذكراه ! » و « إني أحب هذا السكونا !
كلما فاضت الدموع بقلبي جئت أبكي هنا . . »
« وهل تأتينا
دائماً بالزهور ؟ »
فاختلجت كالجرح « إني لأعشق الياسمينا . .
إن ريعانه يذكرني أمسي ، وأحلام غابري ، والفتونا ! »
وتلاقت عيوننا
لم يكن يعمر غير الضباب تلك العيونا
وتمطت ضراعة في جبين أفعمته السنون بؤساً وهونا
وتنزى دمي ، وهمت ذراعاي ، وأحسست في عروقي أتونا
وأردت العناق . لكن إحساساً خفياً أراد أن لا يكونا
قلت . . « يا ليل ! أنت غير التي أحببت ! . .